

تفسير سورة اقتربت الساعة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ
مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ التُّدْرُ ﴿٥﴾﴾

﴿١﴾ يخبر تعالى أن الساعة - وهي القيامة - اقتربت، وأن أوائلها، وحان وقت مجيئها، ومع هذا^(١)؛ فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر؛ فمن أعظم الآيات الدالة على صحّة ما جاء به محمد بن عبدالله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يُريهم من خوارق العادات ما يدل على صحّة ما جاء به وصدقه^(٢)؛ أشار ﷺ إلى القمر، فانشق بإذن الله فلفتين؛ فلقّة على جبل أبي قبيس، وفلقّة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية العظيمة^(٣) الكائنة في العالم العلويّ، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد! ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من ورّد عليكم^(٤) من السفر؛ فإنه إن قدر على سحركم؛ لم يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم! فسألوا كل من قدم، فأخبروهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سحرٌ مستمرٌّ! سحرنا محمدٌ وسحر غيرنا!! وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل.

﴿٢﴾ وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم؛ فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب^(٥) والرّد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾:

(٢) في (ب): «ما يدل على صدقه».

(٤) في (ب): «من قدم إليكم».

(١) في (ب): «ذلك».

(٣) في (ب): «الكبرى».

(٥) في (ب): «بالباطل».

فلم يعد الضمير على انشقاق القمر، [فلم يقل: وإن يروها]، بل قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾؛ فليس^(١) قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما مقصودهم اتباع الهوى.

﴿٣﴾ ولهذا قال: ﴿وكذبوا وأتبعوا أهواءهم﴾؛ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾؛ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى؛ لأمنا قطعاً وأتبعوا محمداً ﷺ؛ لأنه أراهم الله على يديه من البيئات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية، ﴿وكل أمر مستقر﴾؛ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره؛ فالمصدق يتقلب في جنات النعيم ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه خالداً مخلداً أبداً.

﴿٤﴾ وقال تعالى مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح واتباع للهدى^(٢): ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾؛ [أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة] ﴿ما فيه مُزْجَرٌ﴾؛ أي: زاجر يزرهم عن غيهم وضلالهم.

﴿٥﴾ وذلك ﴿حكمة﴾: منه تعالى ﴿بالغة﴾؛ أي: لتقوم حجته على العالمين^(٣)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغني النذر﴾؛ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكراً﴾ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَنْصَرُّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عَسَّرَ ﴿٨﴾

﴿٦﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم^(٤)، فقال: ﴿فتول عنهم﴾: وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين ﴿يدع الداع﴾؛ وهو إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيء نكراً﴾؛ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أظفح ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة يخرج بها^(٥) الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿٧﴾ ﴿خُشَعًا أَبْصَارُهُمْ﴾؛ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم،

(١) في (ب): «وليس».

(٢) في (ب): «المخالفين».

(٣) في (ب): «الإعراض عنهم والتولي عنهم. فتول عنهم».

(٤) في (ب): «فينفخ إسرائيل في الصور نفخة يخرج منها».

فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم ﴿يخرجون من الأجداث﴾: وهي القبور ﴿كانتهم﴾: من كثرتهم وروجان بعضهم ببعض ﴿جراذ منتشر﴾: أي: مبعوث في الأرض متكاثر جداً.

﴿٨﴾ ﴿مهطعين إلى الداع﴾؛ أي: مسرعين لإجابة نداء^(١) الداعي، ولهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾: الذين قد حَضَرَ عذابهم: ﴿هذا يوم عسر﴾؛ كما قال تعالى: ﴿على الكافرين غير يسير﴾: مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين.

﴿٩﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً وازدجراً﴾^(٢) ﴿فدعا ربه أني مغلوب فأنصِر﴾^(٣) ﴿ففنحنا أبوب السماء بماء منهمر﴾^(٤) ﴿فجرنا الأرض عيوناً فاللقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾^(٥) ﴿وحملته على ذات ألواح ودسر﴾^(٦) ﴿تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر﴾^(٧) ﴿ولقد تركناها آية فهل من مذكر﴾^(٨) ﴿فكيف كان عذاب ونذر﴾^(٩) ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر﴾^(١٠).

﴿٩﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله وأن الآيات لا تنفع فيهم ولا تجدي عليهم شيئاً؛ أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسول وكيف أهلهم الله وأحل بهم عقابه، فذكر قوم نوح؛ أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك، وقالوا: ﴿لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾، ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً سرّاً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنوناً﴾: لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً^(٣)؛ فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين. وقوله: ﴿وازدجر﴾؛ أي: زجره قومه وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى، فلم

(١) في (ب): «مسرعين لنداء».

(٢) في (أ): إلى آخر قصته. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر...﴾.

(٣) في (ب): «عقلاً وشرعاً».

يَكْفِيهِمْ قَبْحَهُمُ اللَّهُ عَدَمُ الْإِيمَانِ بِهِ وَلَا تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُ، حَتَّى أَوْصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَدْبَتِهِمْ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَهَكَذَا جَمِيعُ أَعْدَاءِ الرِّسْلِ هَذِهِ حَالُهُمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ.

﴿١٠﴾ فَعِنْدَ ذَلِكَ دَعَا نُوحٌ رَبَّهُ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ﴾: لَا قُدْرَةَ لِي عَلَى الْإِنْتِصَارِ مِنْهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا الْقَلِيلَ النَّادِرَ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَى مَقَاوِمِهِمْ، ﴿فَانْتَصِرْ﴾: اللَّهُمَّ لِي مِنْهُمْ، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا...﴾ الْآيَاتِ.

﴿١١﴾ فَأَجَابَ اللَّهُ سُؤْلَهُ، فَاَنْتَصَرَ^(١) لَهُ مِنْ قَوْمِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾؛ أَي: كَثِيرٍ جَدًّا مُتَابِعٍ.

﴿١٢﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾: فَجَعَلَتِ السَّمَاءُ يَنْزِلُ مِنْهَا مِنَ الْمَاءِ شَيْءًا خَارِقًا لِلْعَادَةِ، وَتَفَجَّرَتِ الْأَرْضُ كُلُّهَا، حَتَّى التُّورُ الَّذِي لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِوُجُودِ الْمَاءِ فِيهِ، فَضَلًّا عَنْ كَوْنِهِ مَنبَعًا لِلْمَاءِ؛ لِأَنَّهُ مَوْضِعُ النَّارِ، ﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾؛ أَي: مَاءُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾: مِنْ اللَّهِ لَهُ بِذَلِكَ، ﴿قَدْ قُدِرَ﴾؛ أَي: قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ فِي الْأَزْلِ وَقَضَاهُ عَقُوبَةً لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ الطَّاغِينَ.

﴿١٣﴾ ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَابٍ وَدُسرٍ﴾؛ أَي: وَنَجَّيْنَا عَبْدَنَا نُوحًا عَلَى السَّفِينَةِ ذَاتِ الْأَلْوَابِ وَالْدُسرِ^(٢)؛ أَي: الْمَسَامِيرِ الَّتِي قَدْ سُمِرَتْ بِهَا الْأَوْحَاهُ وَشُدَّ بِهَا أَسْرَاهَا.

﴿١٤﴾ ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أَي: تَجْرِي بِنُوحٍ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ وَمَنْ حَمَلَهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَخْلُوقَاتِ بِرِعَايَةِ اللَّهِ وَحَفِظَ مِنْهَا لَهَا عَنِ الْغُرْقِ وَنَظَرَ وَكَلَّاهُ مِنْهُ تَعَالَى، وَهُوَ نَعْمُ الْحَافِظِ الْوَكِيلِ، ﴿جِزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾؛ أَي: فَعَلْنَا بِنُوحٍ مَا فَعَلْنَا مِنَ النَّجَاةِ مِنَ الْغُرْقِ الْعَامِّ جِزَاءً لَهُ؛ حَيْثُ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ وَكَفَرُوا بِهِ، فَصَبِرَ عَلَى دَعْوَتِهِمْ، وَاسْتَمَرَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، فَلَمْ يَرُدَّهُ عَنْهُ رَادًّا وَلَا صَدَّهُ عَنْ ذَلِكَ^(٣) صَادًّا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَّمٍ مِمَّنْ مَعَكَ...﴾ الْآيَةِ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ أَنَّا أَهْلَكْنَا قَوْمَ نُوحٍ وَفَعَلْنَا بِهِمْ مَا فَعَلْنَا مِنَ الْعَذَابِ وَالْخِزْيِ جِزَاءً لَهُمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ. وَهَذَا مُتَوَجِّهٌ عَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَهَا بِفَتْحِ الْكَافِ.

(٢) فِي (ب): «وَدُسر».

(١) فِي (ب): «وَأَنْتَصَرَ».

(٣) فِي (ب): «وَلَا صَدَّهُ عَنْهُ».

﴿١٥﴾ ﴿ولقد تركناها آية فهل من مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكَّر بها المتذكِّرون على أنَّ من عصى الرُّسل وعاندتهم أهلَكه الله بعقابٍ عامٍّ شديدٍ، أو أنَّ الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأنَّ أصل صنعتها تعليمٌ من الله لرسوله^(١) نوح عليه السلام، ثم أبقى الله صنعتها وجنسها بين الناس؛ ليدلَّ ذلك على رحمته بخلقه وعنايته وكمال قدرته وبديع صنعته. ﴿فهل من مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: فهل متذكِّر للآيات ملقٍ ذهته وفكرته لما يأتيه منها؛ فإنَّها في غاية البيان واليسر؟

﴿١٦﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونُذْرٍ﴾؛ أي: فكيف رأيت أيها المخاطبُ عذابَ الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقى لأحدٍ عليه حجة.

﴿١٧﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذِّكْر فهل من مُدَكِّرٍ﴾؛ أي: ولقد يسرنا وسهَّلنا هذا القرآن الكريم ألفاظه للحفظ والأداء ومعانيه للفهم والعلم؛ لأنَّه أحسن الكلام لفظاً، وأصدقُه معنى، وأبينه تفسيراً؛ فكلُّ من أقبل عليه؛ يسَّرَ الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهَّله عليه، والذِّكْر شاملٌ لكل ما يتذكَّر به العالمون من الحلال والحرام وأحكام الأمر والنهي وأحكام الجزاء والمواعظ والعِبَر والعقائد النَّافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم وأجلها على الإطلاق، وهو العلمُ النَّافع الذي إذا طلبه العبدُ؛ أُعِينَ عليه. قال بعضُ السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان عليه. ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكُّر بقوله: ﴿فهل من مُدَكِّرٍ﴾.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْعَرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنُذْرٍ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٨ - ١٩﴾ وعاد هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿ريحاً صرصرأ﴾؛ أي: شديدة جداً. ﴿في يوم نحسٍ﴾؛ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مستمراً﴾: عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً.

﴿٢٠﴾ ﴿تنزع الناس﴾: من شدتها فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدمغهم

(١) في (ب): «العبد».

بالأرض، فتهلكهم، فيصبحون ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾؛ أي: كأن جشهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي اقتلعتة^(١) الريح فسقط على الأرض؛ فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره!

﴿٢١﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذري﴾: كان والله العذاب الأليم والنذارة التي ما أبقيت لأحد عليه حجة.

﴿٢٢﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾: كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرهم.

﴿كذبت ثمود بالنذر﴾ ﴿٢٣﴾ ﴿فقالوا ابشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر﴾ ﴿٢٤﴾ ﴿ألقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أيسر﴾ ﴿٢٥﴾ ﴿سيعلمون غدا من الكذاب الأيسر﴾ ﴿٢٦﴾ ﴿إنا مرسلوا التافة فئننا لهم FARَقَبَهُمْ وَأَصْطَبِر﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿ويبينهم أن الماء فسمه بينهم كل شرب محضراً﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فادوا صاحبهم فتعاطى فمعر﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذري﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيب المحنظر﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿٢٣﴾ أي: ﴿كذبت ثمود﴾: وهم القبيلة المعروفة المشهورة في أرض الحجر نبيهم صالحاً عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.

﴿٢٤﴾ فكذبوه واستكبروا عليه وقالوا كبراً وتيهاً: ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾؛ أي: كيف نتبع بشراً لا ملكاً، منا لا من غيرنا ممن هو أكبر عند الناس منا، ومع ذلك؛ فهو شخص واحد. ﴿إننا إذا﴾؛ أي: إن اتبعناه وهو في هذه^(٢) الحالة ﴿لفي ضلال وسعر﴾؛ أي: [إننا] لضالون أشقياء. وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم؛ فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر والحجر والصور.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿ألقي الذكر عليه من بيننا﴾؛ أي: كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر؛ فأى مزية خصه من بيننا؟! وهذا اعتراض من المكذبين على الله لم يزلوا يدلون به ويصولون [ويحولون] ويردّون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم

(١) في (ب): «أصابته».

(٢) في (ب): «وهو بهذه».

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٢٧﴾: فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات بها صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوحيه، ومن رحمته وحكمته أن كانوا من البشر؛ فلو كانوا من الملائكة؛ لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من الملائكة؛ لعاجل المكذبين لهم بالعقاب العاجل. والمقصود من هذا^(١) الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح تكذيبه، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر، فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشير﴾؛ أي: كثير الكذب والشرا! فقبّحهم الله ما أسفه أحلامهم وأظلمهم وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب الشنيع.

﴿٢٧﴾ لا جرم عاقبهم الله حين اشتد طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي من أكبر النعم عليهم آية من آيات الله ونعمة؛ يحلبون من دُرّها^(٢) ما يكفيهم أجمعين، ﴿فتنة لهم﴾؛ أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً، ﴿فارتقّبهم واضطرب﴾؛ أي: اصبر على دعوتك إياهم وارتقّب ما يحلّ بهم، أو ارتقّب هل يؤمنون أو يكفرون.

﴿٢٨﴾ ﴿ونبيّهم أنّ الماء قسمة بينهم﴾؛ أي: وأخبرهم أنّ الماء؛ أي: موردهم الذي يستعذبونه، قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم. ﴿كل شرب مختصر﴾؛ أي: يحضره من كان قسمته، ويحظر على من ليس بقسمة له.

﴿٢٩﴾ ﴿فنادوا صاحبهم﴾: الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة، ﴿فتعاطى﴾؛ أي: انقاد لما أمره به من عقرها، ﴿فعقر﴾.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فكيف كان عذابي ونذري﴾: كان أشدّ عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه، ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾.

﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ ﴿٣٣﴾ إنا أرسلنا عليهم حصبا إلا آل لوط بيّنتهم بسحر ﴿٣٤﴾ نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر ﴿٣٥﴾ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴿٣٦﴾ ولقد زدوه عن ضيفه فلمسنّا أعينهم فدوروا عناي ونذري ﴿٣٧﴾ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴿٣٨﴾ فدوروا عناي ونذري ﴿٣٩﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿٤٠﴾.

﴿٣٣ - ٤٠﴾ أي: ﴿كذبت قوم لوط﴾: لوطاً عليه السلام حين دعاهم إلى

(١) في (ب): «بهذا».

(٢) في (ب): «ضرعها».

عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف، حين سمع بهم قومهم؛ جاؤوا مسرعين يريدون إيقاع الفاحشة فيهم لعنهم الله وقبحهم وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته، ﴿فتماروا بالنذر﴾، ﴿ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر﴾: قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم؛ جزاء لهم على شكرهم لربهم وعبادته وحده لا شريك له.

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾^(١) ﴿٤١﴾ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سُبِّحْنَاهُ لِنَسْمَعُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفِجْ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مَّدَكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ وَهَبُوا فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٤﴾ .

﴿٤١ - ٤٢﴾ أي: ﴿ولقد جاء آل فرعون﴾؛ أي: فرعون وقومه، ﴿النذير﴾: فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات البيّنات والمعجزات الباهرات^(٢)، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقه وجنوده في اليم.

﴿٤٣﴾ والمراد من ذكر هذه القصص تحذير الناس والمكذّبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾؛ أي: أهؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئكم^(٤) المكذّبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا

(١) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكرت الآيات إلى نهاية السورة.

(٢) في (ب): «بالآيات الباهرات والمعجزات القاهرات».

(٣) في (ب): «ما لم يشهد عليهم أحداً غيرهم». (٤) في (ب): «هؤلاء».

خيراً منهم؛ أمكن أن يَنجُوا من العذاب ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك؛ فإنَّهم إن لم يكونوا شرّاً منهم؛ فليسوا بخير منهم. ﴿أم لكم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؛ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذٍ أنكم الناجون بأخبار الله ووعده؟! وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً أن تُكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة؛ فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذِّبين لأفضل الرسل وأكرمهم على الله.

﴿٤٤﴾ فلم يبق إلا أن يكون بهم قوَّةٌ ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نحن جميع منتصرون﴾.

﴿٤٥﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾: فوقع كما أخبر؛ هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتلت صناديدهم وكبرائهم، فأذلُّوا^(١)، ونصر الله دينه ونيبَه وحزبه المؤمنين.

﴿٤٦﴾ ومع ذلك؛ فلهم موعدٌ يجمع به أولهم وآخرهم ومن أصيب في الدنيا منهم ومن متع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةِ موعدهم﴾: الذي يجازون به ويؤخذ منهم الحقُّ بالقسط، ﴿والسَّاعَةُ أدهى وأمرُّ﴾؛ أي: أعظم وأشقُّ وأكبر من كلِّ ما يتوهم أو يدور في الخيال^(٢).

﴿٤٧﴾ ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾؛ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة؛ من الشرك وغيره من المعاصي ﴿في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾؛ أي: هم ضالُّون في الدنيا، ضلالٌ عن العلم وضلالٌ عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم والنار التي تستعر بهم وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿٤٨﴾ ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم﴾: التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشدُّ من [ألم] غيرها، فيهانون بذلك ويُخزَّون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مسَّ سَقَرٍ﴾؛ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿٤٩﴾ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾: وهذا شاملٌ للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية؛ إنَّ الله تعالى وحدَه خَلَقَهَا، لا خالقت لها سواه، ولا مشارك له في

(١) في (ب): «وقتل من صناديدهم وكبرائهم ما ذلُّوا به».

(٢) في (ب): «بالبال».

خلقه^(١)، وخلقها بقضاء سبق به علمه وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف.

﴿٥٠﴾ وذلك على الله يسير؛ فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾: فإذا أراد شيئاً؛ قال له: كن فيكون؛ كما أراد؛ كلمح البصر؛ من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿٥١﴾ ﴿ولقد أهلكنا أشياعكم﴾: من الأمم السابقين، الذين عملوا كما عملتم وكذبوا كما كذبتهم، ﴿فهل من مُدْكَرٍ﴾؛ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين.

﴿٥٢﴾ ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾؛ أي: كل ما فعلوه من خيرٍ وشرٍّ مكتوبٍ عليهم في الكتب القدرية.

﴿٥٣﴾ ﴿وكل صغير وكبير مستطر﴾؛ أي: مسطر مكتوب، وهذه حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى وسطرها عنده في اللوح المحفوظ؛ فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿إن المتقين﴾: لله بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر ﴿في جناتٍ ونَهْرٍ﴾؛ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؛ من الأشجار اليانعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحدائق الحسان، والروضات البهية في الجنان، ورضاً^(٢) الملك الديان والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدرٍ﴾؛ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده ويمددهم به من إحسانه ومنته! جعلنا الله منهم، ولا حرماناً خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير هذه السورة^(٣). والحمد لله.



(٢) في (ب): «ورضوان».

(١) في (ب): «خلقها».

(٣) في (ب): «تم تفسير سورة اقتربت».

تفسير سورة الرحمن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ٤﴾ الشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ٧﴾ أَلَّا
تَطْفَؤَا فِي الْمِيزَانِ ٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا
لِلْأَنَامِ ١٠﴾ فِيهَا فَتَنُكُمُ ١١﴾ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ ١٣﴾ وَالرِّيحَانُ ١٤﴾ فَبِأَيِّ
آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٥﴾ .

﴿١﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحتها باسمه الرحمن، الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله، ثم ذكّر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية والأخروية، وبعد كل جنس ونوع من نعمه ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ .

﴿٢﴾ فذكر أنه: ﴿علم القرآن﴾؛ أي: علّم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرّها على عباده، وهذا أعظم منّة ورحمة رحم بها العباد، حيث أنزل عليهم قرآناً عربياً بأحسن الألفاظ وأوضح المعاني^(١)، مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر.

﴿٣ - ٤﴾ ﴿خلق الإنسان﴾: في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفى الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه أي إتقان، وميّزه على سائر الحيوانات بأن ﴿علّمه البيان﴾؛ أي: التبيين عمّا في ضميره. وهذا شامل للتعليم التلقيني والتعليم الخطي؛ فالبيان الذي ميّز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه.

﴿٥﴾ ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾؛ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجران بحساب مقنن وتقدير مقدّر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرفوا عدد السنين والحساب.

﴿٦﴾ ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾؛ أي: نجوم السماء وأشجار الأرض تعرف

(١) في (ب): «وأحسن تفسير».